محاضرة: حول الشّعر الشّعبي الجزائري (الملحون)

إنّ الشّعرَ الشّعبيّ الذي وصلَ إلينا من شعرائنا الماضين ينقسم إلى نوعين: نوع الشّعر البدوي، وهو فرع من الشّعر الهلالي، وله خصائصه وسماته ونوع الشّعر الحضري؛ وهو فرعٌ عن الموشّحات والأزجال وله كذلك خصائصه ومميّزاته. أمّا الشّعر البدويّ الهلالي وهو أقدم عهداً في المغرب الأوسط من الموشّحات الأندلسية، فإنّه تسرّب إلى الشّعراء الشّعبيين بالمغرب الأوسط من شعراء بني هلال الذين رافقوا الحملات العسكرية التي زحفت على القيروان سنة 449هـ ، وعلى الجزائر سنة 460هـ.

الزّجل:

بعد أن ازدهرت الموشّحات وشاعت بين مختلف الطّبقات الشّعبية عملت عملها في نفوسهم، وحرّكت قرائحهم فحاكوها بمنظومات موزونة وأطلقوا عليها اسم الزّجل أي الصّوت، يقول ابن خلدون في مقدمته: "ولمَّا شاع فنّ التّوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنيق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظّموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها، واستحدثوا فنّاً سمّوه بالزّجل، والتزموا النّظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجالٌ بحسب لغتهم المستعجمة».[1]

وقد تعدّدت التسميات بين العلماء التي تطلق على الشّعر غير المُعرّب، فهناك من اختار له اسم: "الشّعر الشّعبي"، وهناك من سمّاه " الشعر الملحون" ومن سماه " الشّعر العامي والزّجل والقوما والمواليا والكان كان...وغيرها من التسميات. وأقدم ما عُرف من الأدب الشعبي المنظوم هو تلك الأراجيز المروية عن قدماء أجدادنا العرب، والتي اختلطت فيها لهجات العامية بالفصحى، وقد دوَّن لنا منها القدماء كثيراً من الأمثلة وذلك مثل قول بعضهم:

يا قبح الله بنى السّعلات * عمرو بن يربوع شرار النّات * ليسوا أعفاء ولا أكيات *

وهو يقصد " الناس" و" أكياس" ، وقلْبُ السّين تاء لهجة من لهجات إحدى القبائل ليست من اللهجات الفصيحة.

ومن خصائص الشّعر الشّعبي أنّـه:1ـ يُكتب باللهجات العامية.2ـ له أوزانه وإيقاعاته الخاصة به والتي يحتكم فيها إلى السماع.3ـ التوقيع والتأريخ.4ـ أغلبه ما يزال شفوياً.5ـ يرتبط في كثير من الأحيان بالموسيقى والإيقاع.6ـ بعضه مجهول المؤلف.

---

[1]-

ومن أشهر شعراء الشعر الشعبي في الجزائر نجد:
ـ محمد ابن مسايب (ولد بتلمسان أوائل ق 12هـ)./ ـ أبو مدين شعيب (توفي سنة 594هـ قُرب تلمسان).
ـ الأخضر بن خلوف (مدفون بضواحي مستغانم، عاش في ق09هـ/ أوائل العهد التركي).
ـ محمد بن قيطون (أصله من قرية سيدي خالد ضواحي بسكرة، توفي أواخر ق 19م) اشتُهر بمرثيته "حيزية ".
ـ مصطفى بن ابراهيم (عاش في ق 19م ، ولد حوالي 1800م، بضواحي سيدي بلعباس).

وهذا مقتطف من قصيدة : " الحُرم يا رسول الله" لابن مسايب.

الحـــرم يا رســـول اللـــه الحرم يا حبيب الله
الحـــرم جيت عندك قاصد سيدي و ياحبيب الله
الحرم جيت عندك قاصد يا صاحب الشفاعة الأمجد
خـــوفي بزلتي نتمرمد يوم الوقوف عند الله
عاري عليك يا محمد عار الغلام على مولاه
عاري عليك يا بلقاسم يا صاحب اللواء و الخاتم
راني على أفعالي نادم ما درت باش نلقى الله
ما تبت ما قريت اللازم إبليس غرني بهواه
إبليس غرني شيطني للشر و الذنوب رماني
ضيعت في الغرور زماني و الشيب للعذار كساه
ما فقت به حين كساني رأسي بغير مال شرا

الصّوفية والشّعر الملحون الجزائريّ:

ينبع الأدب الصّوفي من أربعة فنون شعرية، كالشّعر الديني عامة، وشعر الغزل، ثم الخمريات، والشّعر المُنبني على الرّمز. وهو لونٌ من ألوانِ الشّعر الإسلاميّ الرّفيع الذي عُني بالنّفس الإنسانية والحديث عنها عناية فائقة، وهو نوعٌ يكون إلهيًا محضًا يستخدم فيه المادة العربية للرمز على الحقائق، وهو شعر مؤوَّل لا يقصد ظاهره، إنّما له مَحامل يحمل عليها وتليق به.

أصل كل حُبِّ، ولا يصحُّ حُبّ شيء آخر ما لم يرجع إلى الأصل وهو حُبّ الله، لكونه تعالى الخالق والمدبّر والمُوجِد والمعدِم، وإلى هذه الفكرة أشار الغزالي في معرض حديثه عن حُبّ الله قال: «من أحَبَّ غير الله لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك بجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحُبّ الرّسول-صلّى

الله عليه وسلم- محمود لأنّه عين حُبّ الله تعالى...، محبوب المحبوب، محبوب وكل ذلك يرجع إلى حُبّ الأصل...فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلاّ الله ولا مستحق للمحبَّة سواه ».

فغايةُ الصّوفي من حب الله هي ذات الله نفسه لا غيره، وهذا النوع من المحبّة لا يؤتى بها إلا من صفت سريرته، وكان له مقام مرضيّ عند الله تعالى، والحُب عند الصوفية لا يمكن تحديده ولا تعريفه ولا شرح حقائقه وإنّما يحدد باللّفظ فقط، ويعرف بالعُرْفِ والاصطلاح، ولم يكن الصوفية أول من أسند مادة "حُبْ" إلى الله تعالى، فقد استمدوا أصول هذا المذهب من نور آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن حُب الله لعباده[1]، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ....**﴾.[2]

و قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ ...** ﴾.[3]

- **رموز الحُب الإلهي:** لقد عبّر الصوفية عن هذا الحب بثلاث رموز تمثلت أساسا في رمز المرأة ورمز الخمرة، ورمز وصف الطبيعة:

* **رمز المرأة:** اعتمد المتصوفة كثيرا على رمز المرأة، لأنّها الأساس في المعجم الغزلي، فكانت رمزاً للعشق والتّوحيد مع معالم المثل العَليا، ولقد كانت لغة الغزل العفيف ملائمة للتّعبير عن الحب الإلهي، هذا إلى جانب استعمالهم لغة الغزل الصريح؛ أي الطّابع الشهواني الحسّي، وهذا لأجل التغنيّ بجمال الحبيبة.

***رمز الخمرة:** إنّ استخدام رمز الخمرة الدّال على حالة السُّكر كان من فسيح إبداع وخيال الصّوفي الذي قارب بين حالة السّكر والمحبّة التي تجعله في حالة أشبه بمن يتعاطى الخمرة المحسوسة، والتي تنشأ عندهم عند مباغتة الجمال للسّر المحبوب في حضرة مُشاهداتهم.

***رمز الطبيعة:** استخدمه شعراء الصوفية نتيجة لجمالها ومناظرها الخلاّبة، فالطبيعة عندهم هي مظاهرها الحيّة والمجاهدة والجميلة والجليلة مثل:(الشّمس، اللّيل، الفجر، النّهـار، الرّيح، الطّير، الحجر ....)، حيث أن الشّاعر الصّوفي عند وصفه للطبيعة يقوم بإسقاط مواجيده وأذواقه التي تتناسب في باطنها مع تلك المظاهر المحسوسة، وذلك حينما يتجلّى له العفو فيها.

ومن أشهر الشعراء الشعبيين الجزائريين الذين كتبوا في الشعر الصوفي نجد: أبو مدين شعيب ـ محمد بن المبروك البودوي. ولعلّ أشهرهم للأخضر ابن الخلوف ديواناً كاملا في المديح النبوي عنوانه: " جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين".

---

[2]- الآية 54 من سورة المائدة.

3- الآية 165 من سورة البقرة.

من بين ما قـال:

بـــسم الله وبيك نـــبدا.... أحسن ما يقال عنـــــدي
ما عزك يا عين وحـــدة ..... حبك في سلطان جسـدي
تبني شهدة فوق شهـــدة .... قدر النحلة كي تـــسـدي
صلى الله عـــليك لـــبـــدا ..... يا محمد أي ســـيـدي
طول الدهر على انبينـا ..... اللهـــــــم صل وسلـم
والامـــطار النـــازلينا..... قدر النجوم والليل اظلم
في البحور الغامـــقينا .... واستخلاف الحوت الابكم